وعلى لسانه الخبر المشئوم بأن الملك استشار الآلهة فى هذا الاختيار فأقروه ، وأن المبارزة بين الاخوة قد بدأت . وتطالع جوليا القتال عن بعد فترى اثنين من بنى هوراس يسقطان مجندلين ، والثالث يلوذ بالفرار ، فتبادر القوم باعلان هزيمة روما . ويتحدم الشيخ هوراس حنقاً وغضباً من جبن ولده . فتقول جوليا : وماذا يصنع واحد أمام ثلاثة ؟ فيجيبها الأب فى شدة وحدة : يموت ! ثم يقسم الشيخ جهد اليمين ليغسلن عار الرومان بدم هذا الابن الجبان .

الفصل الرابع : ولكن قاليرِ وقد شهد نهاية المعركة يعود ويقول : استغفروا الآلهة فقد ظلتم بطل روما ! انه لما بقى وحده أمام بنى كورياس الثلاثة ، وهم مجروحون وهو سليم ، رأى أنه أضعف منهم مجتمعين ، وأقوى عليهم منفردين ، فعمد الى الخديعة وأوهمهم أنه يفر فطاردوه . حتى اذا انفرد كل عن الآخر كر عليهم واحداً بعد واحد فقتلهم ، وبذلك انكسرت ألب ! فتنساغ غصة الشيخ ، ولكن كاميل تجزع على حبيبها جزعاً شديداً يفقدها الرشد فتنحى باللعنة والسخط على أخيها ووطنها . ويدخل حينئذ أخوها المنتصر فيسمعها ، فينزو فى رأسه الغضب ، فيلطخ انتصاره بدم اخته

الفصل الخامس : يجعل هوراس حياته فى يد أبيه تكفيراً عن الجريمة التى ارتكبها ، ويجىء الملك مهنئاً هوراس بفوزه . فيتقدم اليه قاليرِ متهماً الأخ بالقتل طالباً موته ، ويستسلم القاتل لعدل الملك . ولكن الشيخ هوراس يتولى الدفاع عن ابنه فيقول: «معشر الرومانيين !! أترضون أن تقتلوا رجلاً لولاه ما كانت روما اليوم ؟ قل لنا ياقاليرِ وأنت تريد قتل هوراس : فى أى مكان يقتل ؟ أين هذه الجدران ، ولاتزال آلاف الأصوات ترن فى جنباتها بأعماله العظيمة ؟ أم فى وسط هذه الساحات ودماء بنى كرياس لاتزال تدخن فيها ؟ أم بين قبورهم الثلاثة فى ميدان الوغى وكلها شواهد على شرف روما وشهامة هوراس ؟ . . . » ثم تكون نتيجة هذا الدفاع البليغ البراءة .

ومما أخذه النقاد على كورنيي فى هذه القطعة الخالدة أنه لم يراع وحدة العمل . فجعل فيها عملين مختلفين ، الأول حرب روما مع ألب ، وينتهى بالمنظر الثانى من الفصل الرابع . والثانى قتل كاميل ومحاكمة هوراس وينتهى بالرواية .

يتبع

(الزيات)

شخصية ابن خلدون

فى

كتاب الأستاذ محمد عبد الله عنان

للأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتى

هيأت لى فرصة حسنة قراءة كتاب الأستاذ عنان الأخير عن ابن خلدون وتصفح مقالات بعض كتابنا المصريين فى التعليق عليه ، وبخاصة مقال الدكتور هيكل والأستاذ العقاد . وقد لفت نظرى فى مقال هذا الأخير ملاحظة تتضمن أن عنانا لم يتناول شخصية ابن خلدون فى كتابه ! ولعل الذين درسوا الكتاب يذكرون أن كل فصل من فصوله حوى مادة غزيرة عن هذه الشخصية ، وإن لم تجمع هذه المادة فى فصل مستقل .

فلقد أفاض المؤلف كثيراً فى ذكر صفات ابن خلدون الخلقية والعقلية أى فى العناصر المهمة التى تقوم عليها كل شخصية . ولعل كتابه وعى من هذه الصفات أكثر مما وعى عن تراثه الفكرى الذى لازال الكثير منه مبثوثاً فى طى المجهول .

أبرز الأستاذ عنان صورة تقارب الحقيقة من صفات ابن خلدون المنيرة والمظلمة أبرزها كما هى بين النور والظلمة ، كما يفعل النابهون فى كتابة التراجم . ووقف من شخصيته موقفاً نزيهاً . فلم يقف منه موقف المحامى الذى يدافع عن الحقيقة حيناً ، ويستخدم فصاحته فى الظفر أحياناً ، بل وقف موقف القاضى النزيه الفطن الذى لا همّ له الا الوصول إلى الحقيقة ، والحقيقة دون سواها . وهذا هو موقف المؤرخ العلمى .

فها نحن أولاء نراه لا يقطع برأى فى خلال ابن خلدون حتى يرجع إلى الثقات الأذكياء من المؤرخين ، ويتخذ مقاييسه فى الحكم من أعماله وتصرفاته . ونراه أيضاً يربأ بضميره أن يطاوع بعض الكتاب فى الزراية بابن خلدون ونسبة القبيح إليه ، لئلا يكونوا قد اندفعوا فى هذا السبيل جريا وراء الانفعال الأعمى أو العاطفة الهوجاء . وهذا ما نوافقه عليه ، وبخاصة إذا علمنا أن لابن خلدون

أعداء حداداً أسرفوا فى ذمه ، وتدفقت أقلامهم فى الطعن عليه غيرة منه وحقداً .

* * *

وقد حفل الكتاب بذكر صفات ابن خلدون الخلقية والعقلية إلا أنه مَرَّ مَرَّ الكرام على صفاته الجثمانية ومظهره الخارجى . فقد نقل إلينا المؤلف عن السخاوى أن ابن خلدون كان فصيحاً مفوها جميل الصورة ، ونقل عن ابن حجر أنه كان يتمسك بزيه المغربى ، ولم نعثر فى الكتاب على شىء من ملامح وجهه وسمات جسمه ، ولا أعلم ما إذا كانت هناك مادة فى هذه الناحية تعمد المؤلف إغفالها لأن بحثها ليس من عمله ، بل من عمل الفنان والأديب ، أو أنه لم يجد هذه المادة فى كتب القدماء كما هى مع الأسف عادتهم فى إغفال صفات الجسم ، ولعل هذا هو الأرجح .

* * *

ومن حسن الحظ أن المؤلف أمدنا بمادة وافرة عن خلال ابن خلدون وخلقه ، فنقل إلينا طائفة من أقوال الكتاب الأذكياء أمثال المقريزى والسخاوى وابن تغرى بردى ، والجمال البشبيشى ، والمنتابى ، وابن الخطيب ، وابن حجر . فذكر أن المقريزى وكان تلميذاً له وسمه بسمات حميدة وذكره بالخير ، ولسان الدين بن الخطيب ، وكان من معاصريه ، نعته بحسن الخلق والطموح وعلو الهمة ، وأبو المحاسن بن تغرى بردى أشاد بمقدرته ونزاهته فى ولاية القضاء بقوله : « إنه باشر القضاء بحرمة وافرة وعظمة زائدة وحمدت سيرته » وأبو المحاسن من ثقات المؤرخين المصريين .

إلى جانب هذه الصورة النبيلة لابن خلدون نجد أقلاما ضئيلة مسمومة تشوه صورته وتبهت عليه ، وتزرى بخلقه ، وترميه بالتهمة المؤذية الجارحة . فالمنتابى مثلاً ذكر أن ابن خلدون كان يتهم بأمور قبيحة (ص ٩٤) — والجمال البشبيشى اجترأ بقوله إن ابن خلدون كان فى أعوامه الأخيرة يشغف بسماع المطربات ومباشرة الأحداث ، وأنه تزوج امرأة لها أخ أمرد ينسب للتخليط ! (ص ٩٤)

* * *

جمع الأستاذ عنان هذه الأقوال وعلق عليها بقوله : « إنها أقوال تنم عن خصومة مضطرمة ، ومبالغة فى الانتقاص تنحدر إلى معترك السباب والقذف » وقد يكون الأستاذ محقاً فى هذا التعليق لأن نسبة أمثال هذه التهم إلى هذا العبقرى بلا سند ، مما لا يتبلد الضمير النزيه ، وقد تكون هذه التهم أراجيف أذاعها الكاشحون عن قصد وتعمد ولا ظل للحقيقة فيها ، فليس على الأستاذ المؤلف من غبار إذا حكم حكمه الحاسم ، واحتقر هذه التهم كى لا يجرى الوهم إلى تصديقها ، وتصير فى الأذهان اعتقاداً وهى مجرد إرجاف ومراء .

ومع هذا فقد أورد المؤلف كثيراً من صفات ابن خلدون غير المحمودة ، واعتمد فى إيرادها على أقوال ابن خلدون نفسه وأعماله ، فلقد نعى عليه خلتين : أولاهما تلونه ووصوليته ، وثانيتهما كبرياؤه وصلفه . أبرز هاتين الخلتين ابرازاً جلياً ، فانه ليقول فى القسم الأول من كتابه أن ابن خلدون كان من عباد الحوادث ، وكان ينتهز الفرص ويسعى لها بأى الوسائل (ص ٢٨) مهما نافت الوفاء والولاء والعرفان (ص ٤٨) وجلا هذه الخلة فى مكان آخر من الكتاب قال : « وكان ابن خلدون يصدر فى خططه وأعماله عن احتقار عميق للعاطفة والأخلاق المرعية ، وكان يسيره مثل ذلك الروح القوى الذى أعجب به مكيافللى فيما بعد . » وأشار فى كثير من المواضع الى خلته الثانية من خلاله البارزة وهى خلة الكبرياء ، وهذه الخلة قد تدل على عزة النفس وعظمتها فتكون خلة محمودة ، وقد تكون متغالية فتصير كريهة مذمومة ، ولقد أيد المؤلف تخلق ابن خلدون بها فى بعض الأوقات وأنها كانت سبباً من الأسباب التى جعلت كثيراً من المصريين يناصبون الرجل العداء .

ومن دلائل هذه الخلة ما يقوله البشبيشى من أن ابن خلدون كان يكثر الازدراء بالناس (ص ٩٥) وما يقوله ابن حجر فى كتابه رفع الأصر من أن ابن خلدون كان معروفا بخلق الكبر والازدراء بمقام غيره ، وروى أن القضاة دخلوا للسلام عليه حين تولى منصب القضاء فلم يقم لأحد منهم ، واعتذر لمن عاتبه على ذلك .

* * *

وأورد المؤلف غير هاتين الخلتين البارزتين خلالاً أخرى عول فى إيرادها على طائفة من الكتاب أثنت على ابن خلدون وأخذت عليه بعض المآخذ ، فمن هؤلاء نذكر ابن تغرى بردى وما قاله فى النهل الصافى من أن ابن خلدون كان محباً للمنصب ، وما

قاله ابن الخطيب الذى وسمه بالفضائل الجمة يأخذ عليه الخفة فيقول: « إنه كان بعيداً عن التأنى » ، وعلل تحامل رجال الدولة عليه الى هذه الخلة . وابن حجر نقم عليه سوء الأدب أيام كان قاضياً فقال : « كان فظاً جافى الطبع ، وكان يعزر الخصوم بالصفع » .

ولم يقتصر المؤلف فى سوق هذه الحقائق على أقوال الكتاب السالفين ، ولكنه اعتمد فى ذكرها على أقوال ابن خلدون نفسه فى كتاب — التعريف — وهذا الكتاب هو ترجمة ابن خلدون لنفسه . وهذا التعريف الذى يتركه لنا ابن خلدون عن نفسه وحوادث حياته قطعة فريدة فى الأدب العربى ، فهو صورة حقيقية ممتعة لتلك الشخصية الممتازة الجريئة ، رسمت فى كثير من الجرية والصراحة ، حتى إنها لتفصح فى كثير من المواطن عن خلال صاحبها ، وليست هذه الخلال دائماً مما يحمد أو مما تقر الأخلاق الفاضلة ، فهناك الكبرياء والزهو والأثرة ، وهنالك الطمع وحب التقلب وشغف الدس ، وانتهاز الفرص بأى الوسائل ، ثم هنالك الجحود ونكران الصنيعة ، هذه الخلال كلها أو بعضها نلمحها من آن لآخر ماثلة فى أعمـــال المؤرخ ومواقفه حسبما يقصها علينا بنفسه (ص ١٤٠)

* * *

وبعد هذا الدرس الطويل الحر لخلق ابن خلدون كشف الأستاذ عنان فى الجزء الثانى من كتابه ركناً من أركان شخصية ابن خلدون المضيئة ، وهذا الجزء يلقى ضوءا قوياً على عبقرية ابن خلدون ، تلك العبقرية التى صيرته موضع اجلال السلاطين والملوك وذوى النفوذ والجاه ، فهاهم سلاطين المغرب والأندلس يخطبون وده ، وهاهم بنو عريف يكرمون مثواه وينزلونه ضيفاً عزيزاً مع أسرته بأحد قصورهم أربع سنين ، وها هو شعاع العبقرية يسبقه الى مصر المتحضرة ، فيلقاه أهلها بالحفاوة والتعظيم ، ويولونه الدرس فى الأزهر النابه فى ذاك الحين ، ثم يتولى بعد ذلك قضاء المالكية عدة مرات ، وهاهم الكتاب يجمعون على قوة عقله وحدة ذكائه وعلو تفكيره ، حتى أنصفه الحاقدون عليه ، فجمال الدين البشبيشى وهو من ألد خصومه اعترف له بالفصاحة والتفوه ، وابن حجر الذى زرى عليه خلقه ، يظهرنا على ناحية من نواحى عقله يقول : « كان لسنا فصيحاً حسن الترسل وسط النظم ، وكان جيد النقد للشعر ، وإن لم يكن بارعاً فيه » (ص ٩٣)

ولقد كشف لنا الأستاذ عنان عن عبقرية هذا الرجل الفذ وعن شاعريته أيضاً ، وأتى بقليل من قصائده ، وأبان أن هذه القصائد كان يطبعها طابع الروح الصوفى ، وهذه الأبيات تجرى بين دفتى الكتاب كالنهر العذب فى الأرض المثمرة ، ولقد أضاف المؤلف فى القسم الثانى من كتابه آراء كتاب الأفرنج فى عبقرية ابن خلدون وتراثه الفكرى فذكر ما قاله جبلوفتش من أن ابن خلدون درس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن ، وأنه أتى فى هذا الموضوع بآراء عميقة (ص١٥٢) وذكر أيضاً ما قاله فون كريمر من أن ابن خلدون نثر بيدين ندديتين ثمرات تأملاته الناضجة عن سير التاريخ البشرى . »

* * *

وأظن بعد هذا البيان يمكن للقارىء أن يخرج بصورة صحيحة عن شخصية ابن خلدون ، صورة لاتشيع فيها ولا تحيز ، ظهرت فيها الظلال كما ظهرت فيها الأنوار . وهذا المنحى الذى نحاه الأستاذ عنان فى درس هذه الشخصية جدير بالتفات كتابنا المصريين المغرمين بتراجم العظماء ، ولعل الذين وقع فى وهمهم أن كتاب عنان لم يتناول شخصيته ، يصححون رأيهم بعد هذا البيان الموجز .

* * *

وأحب قبل أن أختم هذه الكلمة أن أدعو القراء الى قراءة هذا الكتاب القيم ليتذوقوا فيه حرية البحث ونزاهة الحكم ، ودقة الأسلوب وثباته وإيجازه ورزانته .

وأسمح لنفسى بعد هذا أن أهنىء الأستاذ المؤلف على كتابه ، فلقد أعجبت به وبخاصة بالفصل الذى عقده عن « ابن خلدون والتفكير المصرى » الذى أبان لنا فيه خلق ابن خلدون وأوقفنا على تفكير المؤرخين المصريين فى القرن التاسع الهجرى . وأعجبت كذلك بالفصل الذى عقده عن « ابن خلدون والنقد الحديث لأعلام الغرب » . والذى كشف به عن تفكير ابن خلدون الدقيق الذكى .

وأرجو الله أن يزيد المؤلف قوة ليتم ما أخذ به نفسه من التنقيب عن التاريخ الاسلامى ، وحياة أعلام مصر النابهين .

(ميت غمر) مصطفى عبد اللطيف السحرتى
المحامى